الواقعية الوجودية في "السمان والخريف"

بقلم رجاء النقاش

في شهر ديسمبر الماضي كتبت مقالا عن نجيب محفوظ كنت احاول أن اعطي فيه نظرة شاملة الى ادبه ، ولكنني كنت اشعر في قرارة نفسي بضرورة التأني والحذر في تحديد هذه النظرة الشاملة ، فقد كان يراودني احساس غير واضح بان نجيب محفوظ لم يقل كل مالديه بعد ، وان طريق التطور والتحول مازال مفتوحا أمامه . انه ليس من الذين « أتموا رسالتهم » ولم يعد امامهم الا الصمت او ان يكرروا انفسهم .

والحق انني كنت قبل ذلك من الذين يعتقدون ان نجيب محفوظ انتهى بعد الثلاثية ، ولست ادري بالضبط من أين جاءني هذا الاعتقاد . ولكنه على أي حال كان اعتقادا يعيش في حياتنا الادبية كما تعيش « الاشاعة القوية » ... بل مازال هناك من يقول بهذا الرأي الى الان . اما انا فقد تغير هذا الاعتقاد في نفسي منذ أن بدأت اتابع انتاج نجيب محفوظ بعد الثلاثية ، لقد ادركت ان شيئا جديدا يولد في قلب هذا الفنان وعقله ، وان هذا الشيء آخذ في الظهور يوما بعد يوم في ادبه .

ولم يكن هذا الشيء الجديد واضحا امامي عندما قرأت روايته « اللص والكلاب » ولكنه ازداد وضوحا ودقة بعد أن قرأت روايته الاخيرة « السمان والخريف » . لقد تطور نجيب في أسلوبه وتطور في نظرته الى الحياة وموقفه منها . ولم تعد الكلمات عنده تحمل معنى واحدا محددا كما كان الامر في انتاجه القديم ، بل اصبحت كلماته تعكس كثيرا من المعاني في النفس ، كأنها كلمات شعرية مليئة بالظلال والايحاءات . وذلك كله على عكس اسلوبه القديم الذي كان في معظمه أسلوبا تقريريا خاليا — على التقريب — من روح الشعر .

على انني اود ان اتناول هنا نقطة رئيسية في تطور نجيب محفوظ ، راجيا ان تكون مظاهر التطور الاخرى مجالا لدراسات قادمة .

هذه النقطة الرئيسية هي ان نجيب محفوظ قد انتقل من النزعة الطبيعية التي سيطرت على انتاجه حتى الثلاثية الى شيء جديد لا اجد اصطلاحا نقديا ينطبق عليه بدقة ، ولكنني سأسمح لنفسي بان أسميه باسم «الواقعية الوجودية » . وهذا التطور من الناحية الفنية قد حمل معه تطورا اخر يسير الى جانبه وينبع منه . فقد انتقل نجيب محفوظ من « المحلية » وبدأ يخطو خطوات اولى في طريق المشكلة الانسانية العامة . وبعبارة اخرى بدأ يسير في طريق « النزعة العالمية » .

ولنقف قليلا لنتأمل بوضوح اكثر معنى هذا التطور. فالمرحلة الاولى في ادب نجيب محفوظ — والتي انتهت بظهور الثلاثية — هي المرحلة التي التزم فيها نجيب الاتجاه الطبيعي ، كان نجيب — في هذه المرحلة — يرسم ابطاله رسما تفصيليا لايترك كبيرة ولا صغيرة تتصل بهم دون ان يسجلها ، كان يرسمهم من الخارج ، ويكاد يحدد طول الشخص ووزنه وتركيبه العضوي الدقيق . وهو بعد ذلك يرسمهم من الداخل فيحدد تركيبهم النفسي ، كأنه في احد المعامل الكيميائية يحلل المواد الى اصولها الاولية، ويحدد نسب العناصر المشتركة في تركيب هذه المواد .

وكان نجيب محفوظ بلا شك تلميذا نابغا من تلاميذ المدرسة الطبيعية ، وهو يذكرنا بأدباء هذه المدرسة المعروفين مثل فلوبير « الذي قرأ في المكتبة الوطنية بباريس الفي كتاب لكي يدرس البيئة الاجتماعية والجغرافية لاحد ابطاله » ومثل اميل زولا « الذي كان يحمل دفترا كبيرا يدون فيه ملاحظاته وكان يقضي اسابيع طويلة متجولا بين المخازن التجارية والمصانع المختلفة لكي يجد نماذج لقصصه ويجمع الحوادث لهذه القصص » ومثل بلزاك الذي كان يستأجر أسرة كاملة بايجار شهري ليعيش بينها ويدرس على الطبيعة البيئة والشخصيات في روايته « الاب جوريو » .

ونحن لانعرف — حتى الان — كيف كان نجيب محفوظ يختار ابطاله . فليس لدينا أي معلومات عن هذا الجانب الهام من شخصية نجيب محفوظ الفنية .لانعرف اذا كان يستوحي نماذجه من أبطال واقعيين يعيش معهم حياة مباشرة ويعاشرهم معاشرة دقيقة ، أم انه كان يستوحي صورة هذه النماذج من تجاربه وذاكرته حيث كان يجد البذور الاولى للشخصية ثم يبني عليها من خياله الفني الخصب مايريد من تصورات مختلفة . لاأحديعرف بالضبط هل كان نجيب يحمل « دفترا » مثل زولا ، أم كان يقرأ كتبا عن بيئاته التي يصورها كما كان يفعل فلوبير . أم كان يستأجر اسرة مثلما كان يفعل بلزاك !هذه كلها اشياء غامضة نرجو ان توضحها لنا ابحاث من هذا النوع في المستقبل . ولكن الذي نعرفه بوضوح هو ان النتيجة التي وصل اليها نجيب محفوظ هي نفس النتيجة التي وصل اليها الطبيعيون ... فالشخصيات والبيئات التي

صورها في مرحلته التي انتهت بالثلاثية يلتزم في تصويرها أسلوب المدرسة الطبيعية التي تقوم على اساس من الدراسة الواسعة الدقيقة والمعرفة الشاملة بأدق التفاصيل .

هذا الاديب الطبيعي الذى يعنى بالتفاصيل كل هذه العناية « حمل عصاه ورحل » بعد الثلاثية ، وبدأ يسير في طريق يبتعد به عن أسلوبه الفنى القديم .

ففي رواية « السمان والخريف » نجد شخصيات يرسمها نجيب محفوظ رسما عابرا دون ان يهتم بالتفاصيل والجزئيات . فزوجة عيسى بطل الرواية لاتستغرق من اهتمامه اكثر من بضع صفحات ، ولو ان هذه الشخصية النسائية : الغنية ، العاقر ، نصف المثقفة ، التي تزوجت اكثر من مرة ... لو ان هذه الشخصية وقعت في يد نجيب محفوظ ايام كان يكتب « زقاق المدق » او « بداية ونهاية » لتفنن في عرضها وتقديمها ومتابعتها في كل تفاصيل حياتها اليومية الدقيقة ، وفي أحوالها النفسية المختلفة وطريقة اجتذابها للرجال وتعويض مالديها من نقص . ولكن نجيب في « السمان والخريف » قد مر على هذه التفاصيل كلها مرا سريعا بحيث انك تخرج من الرواية وقد نسيت كل شيء عنها ماعدا انها تمثل محاولة من محاولات بطل الرواية للتغلب على ازمته .

وهكذا ينتقل نجيب من الطبيعية ويبتعد عنها ، وهو في الوقت نفسه ينتقل من الاهتمام بالتفاصيل الى الاهتمام بالمشاكل الكلية العامة ، ويتحول من ذلك الفنان الذي كان همه ان يعطينا ادق صورة للبيئة المحلية التي نعيش فيها ، الى فنان يعرض ويناقش مشكلة انسانية عامة ،تعني البيئة المحلية كما تعني البيئة الانسانية كلها .

وهذا هو ماعنيه بانتقال نجيب محفوظ من المحلية الى العالمية في الوقت الذي ترك فيه مذهب الطبيعيين وبدأ يبحث لنفسه عن عالم جديد مختلف .

فالمشكلة التي يعالجها في « السمان والخريف » لها شكلها المحلي الخاص ... ولكن هذا الشكل لايعدو ان يكون طلاء خارجيا لمشكلة انسانية عميقة تهز عصرنا كله، تلك هي مشكلة الاحساس بالغربة او عدم الانتماء او الاحساس بان الانسان ضائع مطرود من هذا العالم .

ان الصورة المحلية للقصة هي « أزمة عيسى »الحزبي القديم الذي تلوث ولم يستطع ان يتلاءم مع العالم الجديد لانه من « الجيل الزائل » ... ولكن هذه الصورة تخفي وراءها الجانب الاخر الشامل الانساني العام .

فبطل القصة يعاني ماساة السقوط والخطيئة ، لقد أخطأ فسقط ، كما أخطأ آدم وسقط من الجنة ، واصبح عليه ان يلتمس طريقا للخلاص من خطيئته ولو من خلال الالم والعذاب ، ان بطل القصة قد أخطأ خطيئته الكبرى وفقد بساطته وطهارته ، وهو يقول عن نفسه وحزبه :

« كنا حزب المثل الاعلى ، حزب التضحية والفداء ، حزب النزاهة المطلقة ، حزب : كلا ثم كلا امام كافةالمغريات والتهديدات ... فكيف ادركت روحنا الطاهرة الشيخوخة؟ كيف تدهورنا رويدا رويدا حتى فقدنا جميل مزايانا ؟ ها نحن نقلب ايدينا في الظلام يملأنا الشجن والشعور بالاثم فواحسرتاه » .

فالقصة في حقيقتها قصة الانسان الذي اكل من التفاحة المحرمة ، قصة الانسان الضائع الذي وقع في الخطيئة واسلمته الخطيئة لعذاب كبير . فقد خرج من جنته السعيدة التي ظنها دائمة أبدية خالدة ... خرج الى حياة اخرى اصبح فيها منفيا ، زائدا عن الحاجة ... لادور له ... يقول عيسى عن نفسه وعن زملائه :

« مع اي عمل سنتخذه .. سنظل بلا عمل ، لاننا بلا دور ، وهذا هو سر احساسنا بالنفي كالزائدة الدودية » .

ولذلك فهو يحلم بالهجرة ، انه يريد ان يترك منفاه الى عالم اخر ، لعله يجد له دورا في الحياة . لعله ينتمي الى شيء ، وتطمئن روحه ، ويتخلص من « موت الاحياء » الذي هو افظع الف مرة من « موت الاموات » ... وهو يصارح نفسه بالحنين الى الهجرة التي ترمز رمزا قويا الى الرغبة في الخلاص من المأساة التي يعيش فيها :

« تمنى يوما لو كان للمصريين ــ كما لغيرهم ــ جالية في امريكا الجنوبية ليهاجر اليها ... وقال ساخطا ان المصريين زواحف لا طيور ... وراوده حلم بتغيير جذري في حياته ... ولكنه لم يكن يفعل سوى العبث » .

هذه هي المأساة الوجودية التي يعيش فيها البطل ، او هذا هو جوهرها : الغربة والضياع والانفصال عن الواقع والرغبة في الهجرة من « هذا الواقع » الذي اصبح منفى للانسان .

على ان نجيب محفوظ لايقف على سطح هذه المأساة الوجودية ، بل يندفع الى اعماقها ، ويصورها تصويرامثيرا في عدد اخر من المواقف ... على رأسها موقفان عنيفان يؤكدان المعنى الوجودي لهذه المأساة .

اما الموقف الاول فيتضح امامنا عندما يصرخ البطل في داخله ، ومن خلال مرارة الشعور بالوحدة ... قائلا لنفسه « ماأحوجني الى مسكن » ... ان الشعور بالحاجة الى « الانتماء » ، بالحاجة الى التخلص من « العراءالروحي»

في الاسواق

تأملات وجودية

بقلم الدكتور

زكريا ابراهيم

■ لون جديد لم يعرفه الادب العربي من قبل

■ خواطر ويوميات تشتعل بالفكر والحياة وتتناول مشاكل الوجود والموت والعدم والظلام ، وتذكرنا بيوميات كيركجورد وغابرييل مارسيل .

■ مذكرات حية تلوح كلمع من النجوم وسط حلكة الجفاف الاكاديمي .

■ كتاب هام يعيش قضية « الفكر » وسوف يكون بدء سير في طريق جديد من طرق التعبير بالعربية

الثمن ٢٥٠ ق.ل

منشورات دار الاداب

هذا العراء القاسي الاليم الذي يعانيه الانسان عندما لايكون له في الحياة فكرة او هدف او دور يقوم به عن وعي واقتناع ... عندما لايكون منتميا الى شيء ما ... عندما تصبح حياته مجرد انتظار الموت .

ومن الحقائق ذات الدلالة العميقة ان الشعور بالحاجة الى مسكن عند بطل « السمان والخريف » هو نفسه الشعور بالحاجة الى « المسكن » عند بطل قصة « اللص والكلاب » ... فعيسى وسعيد مهران يبحثان عن مسكن ، ويشعران بانهما ضائعان حقا ما داما لايجدان هذا المسكن ... الا يوحي الينا هذا الموقف ايحاء واضحا بان نجيب محفوظ انما يرمز بالمسكن الى حاجة الانسان الى هدف يطمئن اليه ، وقاعدة ـ في حياته الروحية ـ يستند عليها ؟ ان المسكن المفقود في الروايتين هو رمز الخروج من الازمة التي يعانيها الانسان الوحيد ... اللامنتمي .

اما الموقف الاخر الذي يكشف لنا عن ازمة الانسان في صورتها الجديدة كما يتصورها نجيب محفوظ فهو ان ابنة « عيسى » ـ بطل السمان والخريف ـ تنكره ولا تعرفه . وهذه هي نفسها الازمة التي عاشها من قبل سعيد مهران بطل « اللص والكلاب » فابنته ـ ايضا ـ تنكره ولا تعرفه بل وتخاف منه .

ويمكننا ان نتأمل هذا الموقف المفزع طويلا . فما معنى هذه الصورة التي تلح على وجدان نجيب محفوظ .. صورة انكار الابنة للاب ، ولماذا تكررت في روايتين متتابعتين ؟

ان هذه الصورة ـ في اعتقادي ـ ترمز الى شيء كبير يعيش في وجدان هذا الفنان ... انها يمكن ان تدلنا على ان جانبا من مأساة الانسان في نظر هذا الفنان هو ان الاسرة قد تفككت حتى انكرت الابنة اباها ، وان المأساة الانسانية المعاصرة اشبه بالصورة الدينية ليوم القيامة حيث « تذهل كل مرضعة عما أرضعت » ... ان الانسان قد اصبح وحيدا ، لايجد الدفء حتى في اسرته ، انه منفي حتى من الاسرة ... كما نفى الانسان الاول من جنته .

وهذا المعنى الانساني الكبير ليس هو المعنى الوحيد الذي تحتمله هذه الصورة المفزعة ... فهناك معنى اخر كثيرا مانقراه بين السطور في اعمال نجيب محفوظ الاخيرة ... بل ان هذا المعنى بالذات له جذور في اعماله الاولى ... ذلك هو ان التطور ـ رغم انه حركة انسانية ـ كثيرا مايحمل في طريقه آلاما عنيفة . فانكار الابنة للاب يمكن أن يكون تعبيرا عن آلام التطور ومآسيه، حيث ينكر الجديد القديم ، وخاصة في تلك المراحل العنيفة للتغير ، والقرن العشرون من أبرز مراحل التغير في تاريخ الانسان . بل يكاد نجيب محفوظ يعبر تعبيرا مباشرا عن هذا الجانب العنيف للتطور عندما يقول عن بطل السمان والخريف :

« أيقن الآن انه قضى عليه ان يعاني التاريخ في احدى لحظات عنفه حين ينسى ، وهو يثب وثبة خطيرة ، مخلوقاته التي يحملها فوق ظهره فلا يبالي ايها يبقى وايها يختل توازنه فيهوى » .

هذه هي وثبة التاريخ ... وهي الوثبة التي يمكن ان تفسر لنا هذه الصورة المفزعة التي تعيش في وجدان نجيب محفوظ بعنف والتي صورها لنا في « اللص والكلاب » و « السمان والخريف » معا وهي : انكار الابنة لابيها ، او انكار الجديد للقديم بعنف وقسوة .

ولا أعرف رمزا أكثر هولا وفزعا لمأساة الانسان من هذا الرمز الذي يتجسد في صورة انكار الابنة لابيها .

هكذا يرتفع نجيب محفوظ ليصور لنا مأساة انسانية عامة تستمد جذورها من واقع مجتمعنا وظروفه ، ولكنها تعلو بعد ذلك الى مستوى الانسان في كل مجتمع اخر.. وفي هذه « المأساة الانسانية » يقترب نجيب من التناول الوجودي لمأساة الانسان دون ان يفرق في رمزية «الغريب» لالبير كامي مثلا ، فما زال بين نجيب محفوظ وبين الواقع رباط قوي ، ومن هنا اعتقد ان تعبير « الواقعية الوجودية » هو اقرب تعبير لتصوير هذا الاتجاه عند نجيب محفوظ .

ومما يساعدنا على كشف هذا الاتجاه الوجودي عند نجيب محفوظ ايضا انه يستعمل التعبيرات الشائعة في الادب الوجودي مثل « المنفى » و « العبث » والاحساس بان الانسان « زائد عن الحاجة في هذا العالم » . وهو لا يستعملها كألفاظ عادية ، بل يستعملها بنفس العمق الذي نحسه في الادب الوجودي الاصيل .

نجيب محفوظ

على اننا نلاحظ ان نجيب محفوظ يهتم في اعماله الاخيرة بالتصوف ... ففي اللص والكلاب نجد الشيخ الجندي.. وفي السمان والخريف نجد « سمير » وكلاهما قد لجأ الى التصوف كمأوى روحي يجعل آلام الحياة ومشاكلها محتملة وسهلة. ولم يكن نجيب من قبل يعنى بالتصوف كل هذه العناية ، مما يؤكد اتجاهه الى الاهتمام بالمشاكل الانسانية الكبرى ، انه يهتم بمشكلة « الانسان والعالم » لا « الانسان والمجتمع » فقط.

وفي « السمان والخريف » ربما لاول مرة في ادب نجيب محفوظ ، يلتقي البطل في النهاية مع صوت يدعوه الى ان يتخلص من أزمته وورطته ، وان يحاول التغلب على جرحه وعجزه والوقوف على قدميه . ويحاول البطل في السطور الاخيرة ان يلحق بهذا الصوت الذي يعمل على بعثه من العدم ، وانتشاله من حفرة العجز واليأس . ويبدو هذا الصوت كأنه حلم ، او كأنه نوع من الالهام الداخلي العميق ... وما كان نجيب من قبل يهتم بالاحلام ، وما كان يهتم بالالهام الداخلي .

قال عيسى للشاب المجهول :
« ـ الا ترى ان الدنيا كلها مملة ؟
ـ ليس عندي وقت للملل
ـ ماذا تفعل اذن ؟
ـ أعابث المتاعب التي الفتها وانظر الى الامام بوجه مبتسم ، بوجه مبتسم رغم كل شيء ، حتى ظن بي البله..
ـ وما الذي يدعوك الى الابتسام ؟
فقال الشاب بلهجة اكثر جدية :

ـ أحلام عجيبة ، مارأيك في ان نختار مكانا انسب للحديث ؟

فقال عيسى بسرعة :

ـ آسف الحق أني شربت كأسين ، وارغب فـي الراحـة .

فقال الاخر بأسف :

ـ أنت تود أن تجلس في الظلام تحت تمثال سعـد زغلول *

ولم يجب عيسى بكلمة فقام الاخر وهو يقول :

ـ انت لاترغب في حديثي فلا يجوز ان أزعجك اكثر من ذلك ...

وتحول عنه ماضيا نحو المدينة .

وتابعه بعينيه وهو يبتعد . يالله من شاب غريب ! ترى ماذا يفعل اليوم ؟ ولماذا ينظر الى الامام بوجه مبتسم ؟

وظل يتابعه بعينيه حتى بلغ اخر الميدان . لم يكـن سيء النية كما توهم ، ولم يقصده بسوء ، فلم لم يشجعه على الحديث ؟ الم يكن من الممكن ان يستعين به على مغالبة الملل في هذه الساعة من الليل ؟ والم يكن من المحتمل أن يجرهما الحديث الى شيء مشترك تطيب به السهرة ؟

ورآه وهو يختفي متجها نحو شارع صفية زغلول . وقال لنفسه أستطيع ان ألحق به على شرط الا اضيع ثانية في التردد .

وانتفض قائما في نشوة حماس مفاجئة ، ومضى في طريق الشاب بخطى واسعة ، تاركا وراء ظهره مجلسـه الغارق في الوحدة والظلام » .

هكذا يرتفع نجيب محفوظ من تصوير بيئة معينـة الى تصوير الانسان من خلال هذه البيئة ... من الجزئيات والتفاصيل الى الامور الكلية العامة ... من المحلية الى الموضوعات والقضايا العالمية ...

من« الواقعية الطبيعية » الى الواقعية الوجودية .

ونجيب محفوظ ينتقل الى هذه المرحلة الجديدة وقد استعد لها استعدادا واضحا ، فقد اصبح أسلوبه مليئـا بالندى الشاعري الحلو ، بعد ان كان جافا موضوعيا قاسيا. واصبحت لكتابته موسيقى داخلية تتسرب الى روحـك تسربا عميقا وتشعرك حقا ان الفنان الذي كان يتحدث عن الانسان في مصر فقط اصبح يتحدث عن الانسان فـي العالم .

القاهرة — **رجاء النقاش**

---

* والجلوس في الظلام تحت تمثال سعد زغلول معناه ان البطـل متمسك بالماضي متعلق به ، فهو وفدي في عالم لم يعد للوفد فيـه مكان ولا دور ... ان البطل يحن الى الماضي حيث كان « شيئا » فـي الحياة ، وحيث كان له دور وآمال وتطلعات ، انه يحاول ان يتعلـق بخيوط الماضي الرفيعة الواهية لعلها تعطيه من ذكرياتها بعض الـدفء وهو غارق في ازمته .

دار الاداب تقدم

دُرُوبُ الحرّية

رائعة الكاتب الوجودي الكبير

جان بول سارتر

في اجزائها الثلاثة :

سـن الرشـد
وقف التنفيـذ
الحزن العميـق

نقلها عن الفرنسية نقلا امينا دقيقا
الدكتور سهيل ادريس

* نموذج الادب الوجودي في مفهومه الصحيح العميق
* تحفة ادبية يجب ان لا تخلـو منها مكتبة

سن الرشد : ٥٥٠ ق.ل
وقف التنفيذ : ٦٥٠ ق.ل
الحزن العميق : ٥٥٠ ق.ل